مادة: الأدب الصوفي الجزائري السنة الثالثة ليسانس/ أدب جزائري

الدرس رقم 09 أستاذ المادة: بن زياني

أثر الأدب الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر

ياسين بن عبيد/ عثمان لوصيف/ مصطفى محمد الغماري

توطئة: إنّ استحضار التجربة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر ليس ترفا فنيا وفكر يا ولا من قبيل الاعتقاد بالضرورة، بل هو تقنية فنية تكسو النص الإبداعي جمالا وجلالا، فالتصوف الحالي يخلو من سمات وخصائص الصوفية الأولى التي اعتنقها ابن عربي والحلاج و هو " ليس شطحا أو دروشة، وليست انزواءً أو انطواءً بل ثورة شعرية لتغيير الواقع والسمّو بالإنسان إلى منابع الروح... فهي تجر بة وجدانية تسعى إلى إحياء الجوهر الكامن من الإنسان، وخلق عالم روحي بديل على صعيد التجربة الفنية" التي يحاول الشاعر من خلالها التعبير عن معاناته وآلامه وأماله.

ويمكن اعتبار التجربة الصوفية ملجأ وملاذا اتخذه الشاعر الجزائري المعاصر معبرا بواسطتها عن معاناته، مستغلا كل رموزها وموضوعاتها. وسنحاول في هذا الدّرس أن نقدم عرضا وجيزا عن الأثر الصوفي لدى كل من الشعراء الجزائريين المعاصرين أمثال: **ياسين بن عبيد/ عثمان لوصيف/ مصطفى محمد الغماري.**

01)الأثر الصوفي في شعر ياسين بن عبيد:

يعد الشاعر ياسين بن عبيد من الشّعراء الّذين برزوا في الساحة الشّعرّية الجزائرّية فترة السبعينات – في ظل تغيراتها السياسيّة والثقافيّة والاجتماعية– والذي عاصر موجة القصيدة العربية الجزائرية المعاصرة، والّتي" **أهلته لأنّ يكتب قصيدة التصوف**"، فتجربته الشعرية الروحية تنزع إلى صوفية استغراقية تختلف عن سابقاتها من حيث بناياتها كما يقول عمر بوقرورة، فهو يميل إلى الحداثة بجميع خروقاتها وانزياحاتها.

يصف الناقد عبد الحميد هيمة ديوان ياسين بن عبيد (الوهج العذري) بأنه " **رغم صغر**

حجمه فانّه كبير في معناه، إنّه ترنيمة عذبة في حب الله وأغرودة صافيّة في تأمل العالم، وقراءة صفحات الكون النّاصع الجمال،كما أنّه إيغال في ذات شاعرية هَدَهَا الواقع بانكساراته، وهزائمه المتلاحقة، فراح يبحث عن العزاء في عالم الفن والإبداع "، وأهم سمّة تطبع شعر بن عبيد هي تلك النزعة الصوفية التي عبرت عن تجربته المتعلقة بالموروث الصوفي العربي. يقول في إحدى قصائده الصوفية الموسومة بـ(أغنية النار الخضراء):

ياَ صباها تنهدت نظرتاها كلام كواحة في فلاة

قلت للرمش والبقايا شهود أنت منفاه أنت كلّ حياتي

ربِّ منها جلالة وشضايا وزعتني فما التقت أشتاتي

لا حلول...ولا اتحاد...ولكن للهوى شرعة...ولي سكراتي

من خلال قراءتنا لهذه الأبيات نلحظ ظهور حضورا للنزعة الصوفية من بينها : الحب الإلهي، رمز المرأة، ورمز الخمرة. فالقصيدة الصوفية تجربة عاطفية روحية يتجلى فيها الحب في أسمى معانيه وصفاته،حب انطلق من المخلوق إلى حب الخالق،حيث شكّل حضور المرأة الرمزي في هذه الأبيات إحالة غير مباشرة لحب الذات الإلهية، رغبة منه في الوصال والاتصال إلى أن يصل الشاعر إلى مرحلة الانتشاء بالمحبة الإلهية من شدّة التّوحد والفناء فيها، وذلك من خلال اللجوء إلى رمز الخمرة والسكر الذي يصل إليه و يوصله إلى أن يمتلئ قلبه بالحب الإلهي.

بالإضافة إلى توظيف رمز المرأة ، لجأ الشّاعر إلى توظيف رمز" الخمر" الّتي يتخذ الشاعر رمزا للهروب من الواقع المتردي" **فالسكر.. دهش يلحق سر المحب عند مشاهدة جمال المحبوب– فجأة – فيذهل الحسّ، ويُلمّ بالباطن فرح و هزة وانبساط، لتباعده عن عالم التفرقة**" ، ويتجلى ذلك في الأبيات التالية:

سقتنا.. من هواجرها العذابا وهل تخشى معذبة . . عتابا ؟؟

تراءت في نوادينا. . شهابا يقلّ الروعة الكبرى. . التهابا

تهادت في يديها الكاس نشوى أدارتها..حنينا..واجتذابا

وقوله :

وعدت وذياك النديم مصافحا بوجودي وأحوالي وصحوتي وسكراتي

فالشاعر هنا يعبر عن صحوته وسكره؛ حيث إن مبعث حالة السكر عند الصوفي هي المحبة الإلهية. فالسكر عند الصوفية هو" انتشاء الصوفي (المحب) بمشاهدة جمال المحبوب ومطالبة تجليه في الأعيان إنه دهشة وانبهار وحيرة وولهه، وهيجان، و السكر يلم بالباطن نشاط هائل، وفرح زائد يطلق للصوفي العنان فتكسب لغته طرائق جديدة التعبير"

من خلال هذه النماذج، نرى أن الشاعر ياسين بن عبيد غاص في عالم التصوف و تشربه لغويا وذهنيا في رحلة البحث عن وجوده الحقيقي، فراح يتقرب لهذه الذات القلقة بالكلمات، وينسج لها بخياله الصور والتراكيب والرموز الصوفية التي تشفي غليل روحه التواقة للحرية والأمل والصفاء.

2) الأثر الصوفي في شعر عثمان لوصيف:

يعد الشّاعر عثمان لوصيف من الشعراء الذين اتخذوا من الصوفية قناعا روحيا ولغويا وملاذا عرفانيا له؛ حيث تنم مجموعاته الشعرّية – أغلبها – عن تجربة مفعمة بالرموز الصوفيّة، فهو دائم الاستعانة بالنّصّ التراثيّ الصوفي " **لا من حيث المعجم اللغوي وحسب ولكن من حيث المعجم الإيحائي والرمزي، بحيث يسعى إلى تقمص وجدانيات الصوفية أسمى تجلياتها**"، يقول في إحدى قصائده التي تعبق وتفوح منها رائحة البحث عن المطلق:

السماوات التي لا تنتهي

لم يزل يشربه مطلقها

عندما حلق في أزرقها

والمجرات على جبهته

أنهر يغمره رقراقها

نلاحظ عند استنطاق القاموس اللغوي والمعجمي لدى الشاعر غناه بألفاظ صوفية تتواتر دواوينه الكثيرة. " والشعر الصوفي يتميز بأنه،دائما، محلق في عالم الروح، في السماء في النور، في جلال الله، ومن ثم يدرك القارئ له، الفرق بين مرمى الغزل الصوفي والغزل الحسي، ونجده في ديوانه "براءة " يعنون قصيدته بعنوان" التجلي": قائلا:

صاعد في خيوط الضياء

نحو عينيك، امشي على درجات

الندى يا شعلة الروح

يا شهقة في دمي

صاعد نحو عينين

للآلتين هما سدرتي

وزمردتي

يصور لنا الشاعر" مشهدا خياليا حيث يصعد على خيوط الضياء طلبا لهذا النور المتلألئ من عيني هذه المرأة المتوهجة بالضوء، ليبين لنا أن عشقه عشق صوفي ينتهي به إلى المقام الرفيع إلى سدرة المنتهى حيث تطمئن الروح ." فـ" السدرة" **هي "البرزخية الكبرى التي ينتهي إليها السير الكلّ وأعمالهم وعلومهم، وهي نهاية المراتب الأسمائية التي لا تعلوها رتبة**" فهي مطلب كل صوفي عاشق، ولا يصلها إلا أهل الهمة من السالكين" **فالطريق إليها يبتدئ بالسكر الذي يحقق الصعود والارتقاء، وينتهي إلى المحو الذي هو باب القرب**".

ويقول أيضا في قصيدة (تلك صوفيتي) معبرا عن حبه للمرأة الممثلة للذات الإلهية:

تلك صوفيتي

أن أطالع في نور

وجهك

سر الحياة

وسر الغوايات

أن أتوضأ بالعشق في ظل عينيك

يستحضر الشاعر عثمان لوصيف المحبة أو الحب وما فعله في حاله ووجدانه،حيث وصل إلى مرتبة العشق، والذي يدّل استحضاره هنا حسب رأي الناقد عبد الحميد هيمة إلى" عنف التجربة الصوفية لديه إلى حد أن الشاعر يتوضأ بالعشق..."، وفي ذلك إشارة إلى بغية الشاعر التطهر وتطهير نفسه" من أدران الواقع كما يتطهر المصلي بالماء الطهور .."، أي أنه يسمو عن الواقع المادي، فيغدو بذلك عشقه طاهرا لا يتعلق بالأغراض المادية بل روحيا عفيفا مخلصا.

يتحدث "عثمان لوصيف" عن نزعته الصوفيّة: " **النزعة الصوفيّة متجذرة في حياتي منذ الأزل، وهي عندي رؤية ومعاناة ورسالة ساميّة لإنقاذ البشرية، لقد انتهى عصر النبوات وعلى الشّاعر أن يكون نبي العصر، والصوفيّة عندي ليست شطحا أو دروشة، وليست انزواء أو انطواء بل ثورة شعرية لتغيير الواقع والسموّ بالإنسان إلى منابع روحه الأولى، إنّها فيوضات المحبة والخلاص، وإنّي أحاول أن أؤسس لصوفيّة جديدة**"، مبدأها الأوّل الحب والتعلق بالله .

<u>3) الأثر الصوفي في شعر مصطفى محمد الغماري:</u>

تعبر صوفيّة مصطفى محمد الغماري عن اغتراب الفرد والمجتمع في زمن لم يعد الشاعر يحس فيه بالانتماء والوجود، فهو منفي في وطنه، في صراع مع من يخالفه الهوى والعقيدة والدين والحب، وقد عبر عن ذلك كغيره من المتصوفة، " بعبارات عذبة وأبيات جميلة ورموز شفافة "، ومن الرموز الّتي وظفها نجد" **ليلى العامرّية**" في علاقتها

بالمجنون:

جدائل ليلى رؤى المشرق

وآفاق إلهامها المطلق

تجلت..وكان الوجود مواتا

رياضا تموج بالزئبق !!

فقد شكلت (ليلى) المرأة في النص الشعر ي الصوفي ركنا ومصدرا من مصادره الأساسية " **فمن المعروف عن شعراء التصوف الإسلامي قديما أنهم كانوا يستعيرون أسماء الشعراء العذرين العرب وأسماء معشوقاتهم (كليلى، وبثينة، وعزة) و يضمنونها قصائدهم في العشق الإلهي للتعبير عن أذواقهم ومواجدهم الخاصة، كما يتعقبون الأماكن التي ارتادها هؤلاء العذريون** "،وهذا مصطفى محمد الغماري يسافر مع ليلى في بعض قصائده الصوفية فيقول:

محبوك يا نار ليلى بقايا من الفاتحين

فلله قمر المنافي والله جوح الجبين

وأنت، وأن جن وجه هجين كوجه الظنون

وما الحب لولاك إلا ضباب كثيف كثيف

لقد اقترن الحب الإلهي عند الشاعر محمد الغماري أنه أزلي محمول على سيف الجهاد على الكفار، وهذا بحكم نشأة الشاعر الإسلامية وتشربه منها، وغيرته على عقيدته ودينه، إذ طبيعي أن يقرن الشاعر حبه بالجهاد في سبيله، وهو الذي عانى ويلات الاستعمار، وما بعده من مسخ و تشويه للهوية العربية و الإسلامية.